

من ١٠-٤١ سنة

أئمة الهدى

مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ

إِمَامُ دَارِ الْهَجْرَةِ



رسمها

عبد المرضي عبيد

كتبها

سلامة محمد سلامة

شركة سفير

محمد، سلامة

أثمة الهدى «مَالِك» / سلامة محمد

١٢ ص، ٢٣ × ٢٣ سم

١- أثمة الهدى «مَالِك»

٢- الأطفال - تعليم

أ- محمد، سلامة ب- العنوان

ديوى/٢٢٩

سفير جميع الحقوق محفوظة لشركة

رقم الإيداع: ١٣٩٥١ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولي: 5 - 277 - 361 - 977 ISBN:

بَدَتْ تَبَاشِيرُ الصَّبَاحِ تُلُوحُ فِي الْأُفُقِ الْبَعِيدِ، فَتَرَدَّدَتْ بَيْنَ أَرْجَائِهِ أَصَوَاتُ تَغْرِيدِ الطُّيُورِ، وَزَقَزَقَةُ الْعَصَافِيرِ،
وَكَأَنَّهَا تَحْتَفِلُ مَعًا بِمِيلَادِ ضَوْءِ الشَّمْسِ الَّذِي تَسْلُلُ إِلَى أَعْشَاشِهَا فِي خِفَّةٍ مِنْ بَيْنِ أَغْصَانِ الْأَشْجَارِ الْمُتَشَابِكَةِ
الَّتِي تَمَلَأُ الْوَادِي الْفَسِيحَ، فَبَعَثَتْ فِي أَجْسَادِهَا الصَّغِيرَةِ الدَّفْءَ وَالْحَرَكَةَ وَالنَّشَاطَ.

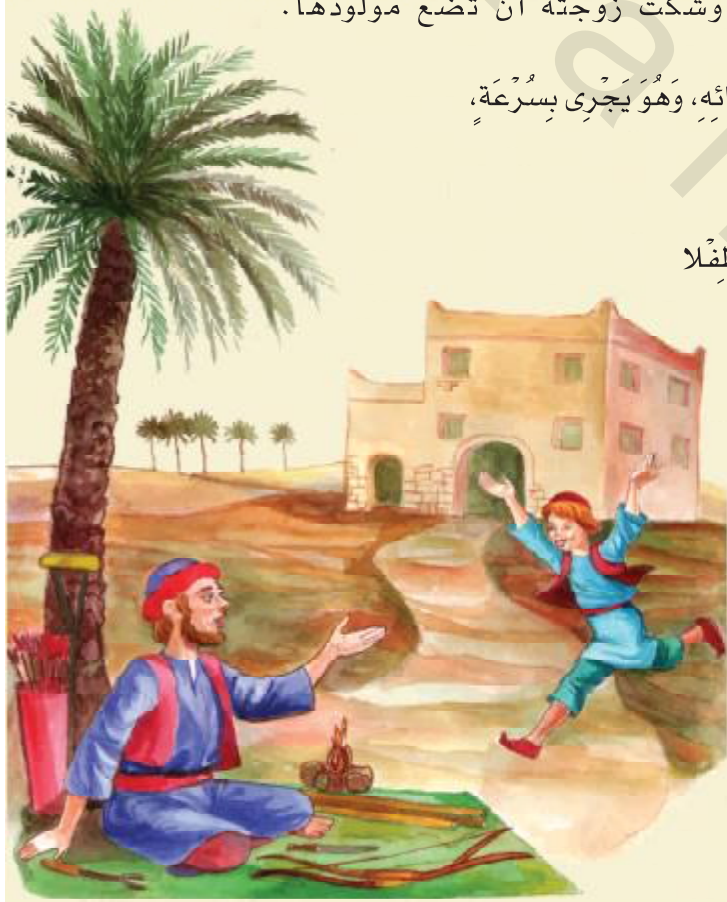
وَفِي وَسْطِ سَاحَةِ وَاسِعَةٍ أَمَامَ مَنْزِلٍ بَسِيطٍ يَقَعُ عَلَى أَطْرَافِ الْوَادِي، كَانَ هُنَاكَ رَجُلٌ مُقْعَدٌ قَدْ افْتَرَشَ الْأَرْضَ،
مُسْتَدًّا بِظَهْرِهِ إِلَى جِدْعِ نَخْلَةٍ عَالِيَةٍ، وَرَاحَ يَصْنَعُ نِبَالَ الْحَرْبِ بِمَهَارَةٍ وَإِتْقَانٍ، وَقَدْ ارْتَسَمَتْ عَلَى قَسَمَاتِ وَجْهِهِ
عَلَامَاتُ الْقَلَقِ وَالتَّرْقُبِ وَالِاضْطِرَابِ بَعْدَ أَنْ أَوْشَكَتْ زَوْجَتُهُ أَنْ تَضَعُ مَوْلُودَهَا.

وَمَا إِنْ انْتَصَفَ النَّهَارُ حَتَّى أَقْبَلَ نَاحِيَةَ الرَّجُلِ أَحَدُ أَبْنَائِهِ، وَهُوَ يَجْرِي بِسُرْعَةٍ،
وَيَقُولُ فِي فَرَحَةٍ غَامِرَةٍ:

- أَبْشِرْ يَا أَبِي... أَبْشِرْ، فَقَدْ وَضَعَتْ أُمِّي مَوْلُودًا لَمْ أَرْ طِفْلًا

فِي وَضَاعَتِهِ وَجَمَالِهِ وَشِدَّةِ بَيَاضِهِ!!

لَمْ تَسَعِ الدُّنْيَا «أَنْسَاءً» وَهُوَ يَسْتَمِعُ إِلَى تِلْكَ الْبِشَارَةِ حَتَّى
كَادَ يَقِفُ لِفَرْطِ سَعَادَتِهِ، لَكِنْ قَدَمَيْهِ الْمُقْعَدَتَيْنِ حَالَتَا
بَيْنَهُ وَبَيْنَ تَحْقِيقِ ذَلِكَ، فَارْتَمَى الْوَلَدُ بَيْنَ أَحْضَانِ أَبِيهِ
فَضَمَّهُ الْأَبُ إِلَيْهِ بِقُوَّةٍ، وَأَخَذَ يَقْبَلُهُ بِحَنَانٍ وَعَطْفٍ
أَبَوِيٍّ كَبِيرٍ.



وَمَا إِنْ التَّقَطَ النَّبَالُ الْمُقْعَدُ أَنْفَاسَهُ حَتَّى طَلَبَ مِنْ وَلَدِهِ أَنْ يَقُودَهُ إِلَى دَاخِلِ الْبَيْتِ، لِيَطْمَئِنَّ عَلَى زَوْجَتِهِ وَوَلَدِهِ.

تَوَجَّهَ «أَنْسُ» بِصُعُوبَةٍ نَحْوَ غُرْفَةِ زَوْجَتِهِ وَالْفَرَحَةِ تَمَلُّ عَيْنِيهِ، ثُمَّ جَلَسَ إِلَى جَوَارِهَا، وَأَخَذَ يُرَبِّتُ عَلَى كَتِفِهَا بِحَنَانٍ وَحُبٍّ، وَحَانَتْ مِنْهُ التَّفَاتَةُ نَحْوَ مَوْلُودِهِ الرَّاقِدِ بِجَوَارِ أُمِّهِ فَتَنَاولَهُ بِيَدِهِ، وَقَبْلَهُ بِحِرْصٍ، ثُمَّ أَعَادَهُ إِلَى جَوَارِ أُمِّهِ بِسَلَامٍ، فَقَالَتْ الْأُمُّ لِرِزْوَجِهَا وَهِيَ بِأَسِمَةٍ: - مَاذَا سَتُسَمِّي وَلَدَنَا يَا زَوْجِي الْحَبِيبُ؟

فَقَالَ «أَنْسُ» فِي فَرَحٍ: سَوْفَ أُسَمِّيهِ «مَالِكًا» عَلَى اسْمِ أَبِي «مَالِكِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ» يَرْحَمُهُ اللَّهُ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يَكُونَ مِثْلَ جَدِّهِ فِي الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ وَرَجَاحَةِ الْعَقْلِ.

نَشَأَ الصَّغِيرُ «مَالِكُ» بَيْنَ أَحْضَانِ «الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ»، وَكَانَتْ حِينَئِذٍ مَنَارَةً عَظِيمَةً مِنْ مَنَارَاتِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ يَقْصِدُهَا الْعُلَمَاءُ وَالطُّلَابُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَبَدَأَ «مَالِكُ» يَحْفَظُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، فَأَظْهَرَ نُبُوغًا كَبِيرًا وَتَفَوُّقًا مُبَكِّرًا، وَاسْتَطَاعَ خِلَالَ سَنَوَاتٍ مَعْدُودَاتٍ أَنْ يَحْفَظَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ كُلَّهُ، وَكَانَ مَازَالَ صَبِيًّا صَغِيرًا دُونَ الْعَاشِرَةِ مِنْ عُمُرِهِ، وَكَانَتْ أُمُّهُ تَلْحَظُ نُبُوغَهُ وَتَفَوُّقَهُ، فَكَانَتْ تَرَعَاهُ وَتَعْتَنِي بِهِ عِنَايَةً كَبِيرَةً، وَتَخْتَارُ لَهُ أَسَاتِذَتَهُ وَشُيُوخَهُ، وَكَثِيرًا مَا كَانَتْ تَحْكِي لَهُ عَنْ جَدِّهِ «مَالِكِ» الْعَالِمِ الْجَلِيلِ الَّذِي بَلَغَ مِنَ الْمَكَانَةِ وَالْقَدْرِ وَالْعِلْمِ إِلَى دَرَجَةٍ أَنَّ «عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ» وَالِى «الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ» - حِينَئِذٍ - كَانَ يَسْتَشِيرُهُ فِي كَثِيرٍ مِنْ أُمُورِهِ، فَأَحَبَّ «مَالِكُ» الْعِلْمَ، وَأَحَبَّ مَجَالِسَ الْعُلَمَاءِ قَبْلَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَيْهَا.

وَذَاتَ يَوْمٍ نَادَتْ الْأُمُّ الصَّالِحَةَ عَلَى وَلَدِهَا، وَقَالَتْ لَهُ بَعْدَ أَنْ أَلْبَسَتْهُ أَحْسَنَ الثِّيَابِ:

- لَقَدْ اخْتَرْتُ لَكَ يَا بَنَى الْعَالَمِ الْجَلِيلِ «رَبِيعَةَ بْنَ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ» عَالِمَ الْمَدِينَةِ وَفَقِيهَهَا لِيَكُونَ أَوَّلَ مُعَلِّمٍ لَكَ،

فَاذْهَبْ يَا بُنَى إِلَيْهِ، وَتَعَلَّمْ عَلَى يَدَيْهِ، لَكِنْ عَلَيْكَ أَنْ تَتَعَلَّمَ مِنْ أَدَبِهِ أَوَّلًا قَبْلَ أَنْ تَتَعَلَّمَ مِنْ عِلْمِهِ.

فَقَالَ «مَالِكُ» فِي أَدَبٍ سَمِعًا وَطَاعَةً يَا أُمِّي.

وَمَعَ شُرُوقِ الشَّمْسِ كَانَ الصَّغِيرُ «مَالِكُ» يَجْلِسُ إِلَى أُسْتَاذِهِ يَنْهَلُ مِنْ عِلْمِهِ فِي شَغَفٍ وَنَهَمٍ وَجِدٍّ وَنَشَاطٍ، وَكَانَ «مَالِكُ» عِنْدَمَا يَفْرُغُ مِنْ تَلَقُّى دُرُوسِهِ عِنْدَ أُسْتَاذِهِ يَجْلِسُ تَحْتَ ظِلَالِ الْأَشْجَارِ فِي الطَّرِيقِ إِلَى بَيْتِهِ لِيُعِيدَ عَلَى نَفْسِهِ قِرَاءَةَ كُلِّ مَا أَمْلَأَهُ عَلَيْهِ شَيْخُهُ، وَلَا يَعُودُ إِلَى بَيْتِهِ قَبْلَ أَنْ يَنْتَهِيَ مِنْ حِفْظِهِ تَمَامًا، وَكَانَ «أَنَسُ» أَبُو مَالِكٍ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ انْشِغَالِهِ بِعَمَلِهِ وَقُعُودِهِ عَنِ الْحَرَكَةِ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ مُحِبًّا لِلْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ، وَيَحْفَظُ كَثِيرًا مِنْ أَحَادِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَدَائِمًا مَا كَانَ يَجْمَعُ أَوْلَادَهُ حَوْلَهُ لِيَتَابِعَ أَخْبَارَهُمْ، وَيَقِفُ عَلَى مَدَى تَقْدُمِهِمْ وَاسْتِيعَابِهِمْ لِدُرُوسِهِمْ، وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ سَأَلَ الْأَبُ أَوْلَادَهُ مَسْأَلَةً فَقَهِيَّةً فَأَجَابَ عَنْهَا «النَّضْرُ» أَخُو «مَالِكِ» الْأَكْبَرُ، وَأَخْطَأَ «مَالِكُ» فِي الْإِجَابَةِ فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ مُعَاتِبًا: لَقَدْ أَهْلَكَ اللَّعِبُ بِالْحَمَامِ يَا بُنَى عَنْ دُرُوسِ الْعِلْمِ، وَغَابَ عَنْكَ مَا عَهَدْنَا عَلَيْكَ مِنْ دَأْبٍ وَنَشَاطٍ وَجِدٍّ وَاجْتِهَادٍ، فَحَزَنَ «مَالِكُ» كَثِيرًا لِحُزْنِ أَبِيهِ وَغَضَبِهِ، وَعَاهَدَ نَفْسَهُ أَنْ يَعُودَ إِلَى سَابِقِ هِمَّتِهِ وَدَأْبِهِ.

وَمَعَ نَسَمَاتِ الصَّبَاحِ الْأُولَى كَانَ «مَالِكُ» يَحْمِلُ أَدَوَاتِهِ، وَيَنْطَلِقُ إِلَى حَلَقَةِ الشَّيْخِ «ابْنِ هُرْمَزٍ» أَحَدِ عُلَمَاءِ «الْمَدِينَةِ» الْأَجْلَاءِ لِيَأْخُذَ عَنْهُ الْعِلْمَ، وَظَلَّ التَّلْمِيزُ النَّجِيبُ مُلَازِمًا لِأُسْتَاذِهِ سَبْعَ سَنَوَاتٍ لَا يَتْرُكُهُ أَبَدًا وَلَا يَذْهَبُ إِلَى أَحَدٍ غَيْرِهِ، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يَحْشُو مَلَابِسَهُ بِالْقُطْنِ حَتَّى تَقِيَهُ مِنْ بَرْدِ الْأَرْضِ مِنْ طُولِ مَا كَانَ يَجْلِسُ أَمَامَ أُسْتَاذِهِ لِيَتَعَلَّمَ مِنْهُ، وَقَدْ أَحَبَّ «ابْنُ هُرْمَزٍ» «مَالِكًا» كَثِيرًا فَكَانَ يُشَجِّعُهُ، وَيَسْتَقْبِلُهُ فِي بَيْتِهِ فِي أَيِّ وَقْتٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ.

سَمِعَ «ابْنُ هُرْمَزٍ» يَوْمًا طَرَفًا عَلَى بَابِهِ، فَقَالَ لِجَارِيَتِهِ: انْظُرِي مَنْ بِالْبَابِ، فَقَالَتْ: إِنَّهُ ذَلِكَ الصَّبِيُّ الْأَشَقْرُ الَّذِي

لَا يَتْرُكُكَ أَبَدًا، فَقَالَ لَهَا «ابْنُ هُرْمَزٍ»: دَعِيهِ يَدْخُلُ فَذَلِكَ عَالِمُ النَّاسِ!!

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ انْشِغَالِ «مَالِكٍ» بِطَلَبِ الْعِلْمِ فِي هَذِهِ الْفِتْرَةِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَهْمِلُ عَمَلَهُ فِي تِجَارَةِ الثِّيَابِ مَعَ أَخِيهِ «النَّضْرِ» بَلْ إِنَّهُ كَانَ يَرْتَبُ وَقْتَهُ بِصُورَةٍ تُثِيرُ الْإِعْجَابَ وَالْدهْشَةَ بَيْنَ هَذَا وَذَلِكَ.

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ وَتَخَطَّى «مَالِكٌ» سِنَّ الْبُلُوغِ بِقَلِيلٍ، وَأَصْبَحَ حُبُّ الْعِلْمِ يَمْلَأُ عَلَيْهِ قَلْبَهُ وَعَقْلَهُ، وَأَصْبَحَتْ نَفْسُهُ لَا تَرْضَى بِالْقَلِيلِ فِيهِ، فَمَا يَكَادُ يَسْمَعُ بِعَالِمٍ إِلَّا وَيَجِدُ نَفْسَهُ تَهْفُو إِلَى الذَّهَابِ إِلَيْهِ وَالتَّكَلُّمِ عَلَى يَدَيْهِ، وَحَصَدَ مَا عِنْدَهُ مِنْ عِلْمٍ حَصْدًا، وَمَا إِنَّ تَرَامَى إِلَى مَسَامِعِهِ خَبَرُ فَقِيهِ الْمَدِينَةِ الْإِمَامِ الْعَالِمِ «نَافِعِ الدَّيْلَمِيِّ» مَوْلَى «عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى انْطَلَقَ يَجْمَعُ مَا وَرِثَهُ «نَافِعٌ» مِنْ فَهْمٍ وَحَدِيثٍ عَنِ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ «عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ»، فَكَانَ يَذْهَبُ إِلَى بَيْتِ شَيْخِهِ فِي الْبَقِيعِ خَارِجَ «الْمَدِينَةِ»، وَيُظَلُّ وَاقِفًا يَتَرَقَّبُ خُرُوجَ الشَّيْخِ لِيَسْمَعَ مِنْهُ، وَيَتَعَلَّمَ عَلَى يَدَيْهِ.

ثُمَّ بَدَأَ «مَالِكٌ» رِحْلَةً جَدِيدَةً إِلَى نَبْعٍ آخَرَ مِنْ يَنَابِيعِ الْعِلْمِ، وَجَبَلَ مِنْ جِبَالِ الْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ الشَّيْخَ الْجَلِيلِ «ابْنَ شِهَابِ الزُّهْرِيِّ» الْمُلَقَّبُ بِأَعْلَمِ الْحَفَاضِ، وَالَّذِي يُعَدُّ مِنْ أَوَائِلِ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ دَوَّنُوا حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ بَلَغَ مِنْ حِرْصِ «مَالِكٍ» وَانْقِطَاعِهِ لِتَحْصِيلِ الْعِلْمِ عَنْ أَسَاتِذِهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ لِنَفْسِهِ يَوْمَ رَاحَةٍ، حَتَّى لَوْ كَانَ هَذَا الْيَوْمُ هُوَ يَوْمُ الْعِيدِ، بَلْ إِنَّهُ كَانَ يَتَحَيَّنُ أَيَّامَ الْأَعْيَادِ لِيَذْهَبَ إِلَى بَيْتِ شَيْخِهِ، لِعِلْمِهِ أَنَّ أَحَدًا لَنْ يَزَاحِمَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَحَدَّثَ أَنَّ ذَهَبَ «مَالِكٌ» مَرَّةً فِي صَبَاحِ يَوْمٍ عِيدٍ إِلَى بَيْتِ أَسَاتِذِهِ،



فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ مُسْتَعْرِبًا: أَلَا تَذْهَبُ إِلَى بَيْتِكَ يَا بَنِي لَتَحْفَلَ بِالْعِيدِ كَالْآخَرِينَ!!؟

فَقَالَ «مَالِكُ» فِي أَدَبٍ: لَا رَغْبَةَ لِي فِي ذَلِكَ يَا إِمَامُ.

فَقَالَ الشَّيْخُ: وَمَاذَا تُرِيدُ إِذَنْ؟

فَقَالَ مَالِكُ: أُرِيدُ أَنْ تُحَدِّثَنِي بِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَسَرَّ الشَّيْخُ وَحَدَّثَهُ أَرْبَعِينَ حَدِيثًا، فَقَالَ مَالِكُ: زِدْنِي.

فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: يَكْفِيكَ هَذَا الْقَدْرُ يَا بَنِي، فَإِنْ حَفِظْتَهُ فَأَنْتَ

مِنَ الْحَفَاطِ.

فَقَالَ «مَالِكُ»: قَدْ حَفِظْتُهُ يَا أَسْتَاذِي. فَنَظَرَ «ابْنُ

شِهَابٍ» إِلَيْهِ فِي دَهْشَةٍ، ثُمَّ أَخَذَ مَا فِي يَدِ «مَالِكِ» مِنْ

أَحَادِيثٍ، وَقَالَ لَهُ: حَدِّثْنِي إِذَنْ بِمَا حَفِظْتَ!! فَحَدَّثَهُ

«مَالِكُ» بِالْأَرْبَعِينَ حَدِيثًا كَمَا أَمْلَاهَا عَلَيْهِ بِالضَّبَطِ،

فَارْزَادَ سُرُورُ الشَّيْخِ وَقَالَ لَهُ بَعْدَ أَنْ أَتَتْهُ عَلَيْهِ

ثَنَاءً كَبِيرًا: قُمْ يَا بَنِي فَأَنْتَ مِنْ أَوْعِيَةِ الْعِلْمِ.

ظَلَّ «مَالِكُ» يَتَقَلَّبُ بَيْنَ الْمُحَدِّثِينَ وَالْفُقَهَاءِ

وَالْعُلَمَاءِ فِي نَشَاطٍ وَدَأْبٍ لَا يَعْرِفُ الْكَلَلَ أَوْ

الْمَلَلَ، حَتَّى سَمِعَ مِمَّا يَقْرُبُ مِنْ تِسْعِمَائَةِ

مُحَدَّثٍ وَفَقِيهِ، فَتَضَجَّ عَقْلُهُ، وَاتَّسَعَتْ مَدَارِكُهُ،



وَبَرَزَ بَيْنَ أَقْرَانِهِ فَقِيهًا نَابِغَةً، وَمُحَدِّثًا ثِقَةً، وَعَلَى الرَّغْمِ مِمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ «مَالِكٌ» فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنْ سَعَةِ الْعِلْمِ،
وَالْقُدْرَةِ عَلَى التَّدْرِيسِ وَالْإِفْتَاءِ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ مَجْلِسًا لِيُعَلِّمَ النَّاسَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَجَازَهُ لِلتَّدْرِيسِ سَبْعُونَ شَيْخًا
مِنْ عُلَمَاءِ الْمَدِينَةِ الثَّقَاتِ.

هَبَّتْ نَسَمَاتُ الرَّبِيعِ الْعَطِرَةِ عَلَى حَلَقَاتِ الْعِلْمِ الْمُنْتَشِرَةِ فِي الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ، فَبَعَثَتْ فِي نَفُوسِ الْجَالِسِينَ
السُّرُورَ وَالْفَرَحَةَ، وَفِي نَفْسِ الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ يَجْلِسُ فِيهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ «عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ» لِلْحُكْمِ وَالْقَضَاءِ بَيْنَ
النَّاسِ اتَّخَذَ الْإِمَامُ «مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ» مَجْلِسَهُ مُقْتَدِيًا وَمَتَأَسِّيًا بِالْفَارُوقِ «عُمَرُ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
وَكَانَ ذَلِكَ عَامَ (١١٨) هِجْرِيَّةً، وَكَانَ عُمَرُ «مَالِكُ» حِينَئِذٍ نَحْوَ خَمْسَةِ
وَعِشْرِينَ عَامًا، فَالْتَفَّ حَوْلَهُ طُلَابُ الْعِلْمِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَقَصَدَهُ
الْفُقَهَاءُ وَالْمُحَدِّثِينَ لِيَسْتَمِعُوا إِلَى حَدِيثِهِ وَفَتْوَاهُ، وَكَانَ مَجْلِسُ
«مَالِكُ» تُحِيطُ بِهِ الْمَهَابَةُ، وَتَشْمَلُهُ السَّكِينَةُ، وَيَلْفُهُ الْوَقَارُ،
وَيَسُودُهُ الْهُدُوءُ وَالْأَدَبُ، وَكَانَ «مَالِكُ» لَا يَجْلِسُ إِلَّا إِذَا تَوَضَّأَ
وَتَطَيَّبَ وَلَبَسَ أَحْسَنَ الثِّيَابِ وَأَجْمَلَهَا، احْتِرَامًا وَتَوْقِيرًا
لِحَدِيثِ سَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَمَا هِيَ إِلَّا سَنَوَاتٌ مَعْدُودَاتٌ حَتَّى بَلَغَتْ شَهْرَةَ «مَالِكُ»
الْآفَاقَ، وَعَلَتْ مَنَزَلَتُهُ وَمَكَانَتُهُ بَيْنَ النَّاسِ، فَسَمِعَ لَهُ
الْأُمَرَاءُ، وَأَخَذَ بِمَشُورَتِهِ الْخُلَفَاءُ وَالْقُضَاةُ، وَنَادَى مُنَادٍ
فِي «الْمَدِينَةِ»: أَلَا لَا يُفْتَى النَّاسَ إِلَّا «مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ»
و«ابْنُ أَبِي ذَنْبٍ»، وَكَانَ مِنْ عُلَمَاءِ «الْمَدِينَةِ» الْكِبَارِ.

وَمَنْذُ أَنْ جَلَسَ الْإِمَامُ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ لَمْ يَعْرِفِ التَّمَلُّقُ أَوْ النِّفَاقُ وَحُبُّ الْجَاهِ إِلَى قَلْبِهِ سَبِيلًا، بَلْ كَانَ رَضِيًّا شُجَاعًا مُحِبًّا لِقَوْلِ الْحَقِّ مُسَدِّيًا النَّصْحَ مَهْمَا كَلَّفَهُ ذَلِكَ مِنْ مَشَقَّةٍ أَوْ عَنَاءٍ، وَقَدْ تَكَبَّدَ الْإِمَامُ مِنْ جَرَاءِ ذَلِكَ أَنْ تَجَرَّأَ عَلَيْهِ «جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ» وَالِىَ «الْمَدِينَةَ» وَاتَّهَمَهُ بِتَشْجِيعِ الثَّاغِرِينَ عَلَى الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ، فَكَلَّلَ بِهِ، وَضَرَبَهُ حَتَّى خَلَعَ كَتِفَهُ، وَأَسَاءَ إِلَيْهِ إِسَاءَةً لَا تَلِيْقُ بِعَالِمٍ جَلِيلٍ مِثْلِهِ.

فَلَمَّا عَلِمَ الْخَلِيفَةُ الْعَبَّاسِيُّ «أَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ» بِمَا حَدَثَ لِإِمَامِ دَارِ الْهِجْرَةِ تَرَكَ «بَغْدَادَ»، وَقَصَدَ «مَكَّةَ» حَاجًّا عَامَ (١٤٦) هَجْرِيَّةً، وَقَابَلَ الْإِمَامَ «مَالِكًا» عِنْدَ «مِنَى» وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ بِمَا يَلِيقُ بِمَقَامِهِ وَقَدْرِهِ قَائِلًا: وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَا أَمَرْتُ بِالَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ الْوَالِى وَلَا عَلِمْتُهُ، وَإِنَّهُ لَا يَزَالُ أَهْلُ الْحَرَمَيْنِ بِخَيْرٍ مَا كُنْتُ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ، وَلَسَوْفَ أَنْزِلَ بِعَدْوِ اللَّهِ «جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ» مِنَ الْعُقُوبَةِ أَضْعَافَ مَا نَالَهُ مِنْكَ.

فَسَرَّ الْإِمَامُ بِقَوْلِ الْخَلِيفَةِ، وَقَالَ لَهُ فِي سَمَاحَةٍ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَدْ عَفَوْتُ عَنْ «جَعْفَرٍ» لِقَرَابَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَرَابَتِهِ مِنْكَ.

وَتَعَدَّدَتِ اللَّقَاءَاتُ بَيْنَ الْخَلِيفَةِ «أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ»، وَالْإِمَامِ «مَالِكٍ» وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ كَانَ الْخَلِيفَةُ يُجِلُّهُ كَثِيرًا، وَيَدْنِيهِ مِنْهُ، وَيَعْدِقُ عَلَيْهِ، وَكَانَ يَقُولُ فِي حَقِّهِ: «وَاللَّهِ مَا عَلَى الْأَرْضِ الْيَوْمَ رَجُلٌ يُسْتَحْيَا مِنْهُ إِلَّا «مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ»، وَ«سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ».

وَفِي إِحْدَى اللَّقَاءَاتِ طَلَبَ مِنْهُ الْخَلِيفَةُ أَنْ يُؤَلِّفَ كِتَابًا، يَتَضَمَّنُ مَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَالْأَئِمَّةُ مِنْ رَأْيٍ لِيَحْمِلَ النَّاسُ فِي جَمِيعِ بِلَادِ الْإِسْلَامِ عَلَى الْقَضَاءِ بِمَا فِيهِ وَعَدَمُ مُخَالَفَتِهِ.

فَأَجَابَهُ إِلَى طَلَبِهِ، وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِ أَلَّا يَفْرِضَ كِتَابَهُ عَلَى النَّاسِ، فَقَدْ يَصِلُ إِلَى عِلْمِهِمْ رَأْيًا عَنْ صَحَابِيٍّ غَيْرِ مَا رَأَى هُوَ فَيُضَيِّقُ بِذَلِكَ عَلَى النَّاسِ أَمْرًا فِيهِ سَعَةٌ.

فَذَهَبَ الْإِمَامُ إِلَى بَيْتِهِ وَقَضَى لَيْلَهُ سَاهِرًا يُفَكِّرُ فِي ذَلِكَ الْعَمَلِ الْجَلِيلِ الَّذِي شَغَلَ عَقْلَهُ، وَمَا إِنْ بَزَغَ ضَوْؤُ الْفَجْرِ، وَبَدَدَ بَنُورُهُ ظِلَامَ اللَّيْلِ، حَتَّى كَانَ الْإِمَامُ قَدْ عَقَدَ عَزْمَهُ، وَجَهَّزَ أَدَوَاتِهِ، وَعَكَفَ يَجْمَعُ أَحَادِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَقْوَالَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مِنْ رَأْيٍ، وَمُنْذُ بَدَايَةِ سَنَةِ (١٤٨) هِجْرِيَّةً، وَطَوَالَ أَحَدَ عَشَرَ عَامًا ظَلَّ الْإِمَامُ يَمَحُصُ وَيَهْدُبُ وَيَنْقُحُ، مُتَحَمِّلًا الْمَشَقَّةَ وَالتَّعَبَ وَطَوَّلَ السَّهَرَ فَكَانَتْ ثَمَرَةُ هَذَا الْجُهِدِ الْعَظِيمِ كِتَابَ «الْمَوْطَأِ» أَيُّ الْمَيْسَرِ فِي عُلُومِ الْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ، وَمَا إِنْ خَرَجَ هَذَا الْعَمَلُ إِلَى النُّورِ عَامَ (١٥٩) هِجْرِيَّةً حَتَّى امْتَدَحَهُ كِبَارُ الْعُلَمَاءِ، وَاعْتَزَّ بِهِ الْفُقَهَاءُ، وَذَاعَتْ شَهْرَتُهُ بَيْنَ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ، وَأَصْبَحَ فَقْهُ الْإِمَامِ «مَالِكٍ» وَمَذْهَبُهُ يَنْتَشِرُ فِي حَوَاضِرِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ مِنْ أَقْصَاهُ إِلَى أَدْنَاهُ، وَفُتِحَتْ عَلَى الْإِمَامِ أَبْوَابُ الْخَيْرِ بَعْدَمَا عَانَى طَوِيلًا مِنْ ضَيْقٍ فِي الرِّزْقِ وَشِدَّةٍ فِي الْعَيْشِ، لِدَرَجَةٍ أَنْ بَلَغَ بِهِ الْحَالُ أَنْ تَقْضَ سَقْفَ بَيْتِهِ لِيَبِيعَهُ وَيَسْتَفِيدَ مِنْ ثَمَنِهِ لِيَسُدَّ جُوعَ زَوْجَتِهِ وَأَبْنَائِهِ الْأَرْبَعَةِ، ثُمَّ أَتَمَّ اللَّهُ عَلَيْهِ نِعَمَهُ وَمَنَحَهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَأَنْهَالَتْ عَلَيْهِ الْعَطَايَا وَالْجَوَائِزُ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَالسَّلَاطِينِ وَالْخُلَفَاءِ، فَكَانَ الْإِمَامُ يُنْفِقُهَا فِي كَثِيرٍ مِنْ أَوْجُهِ الْخَيْرِ، وَيَكْفُلُ عَدَدًا غَيْرَ قَلِيلٍ مِنْ طُلَبَةِ الْعِلْمِ، وَيُنْفِقُ عَلَى يَتَامَى الْمُسْلِمِينَ وَفُقَرَائِهِمْ بِسَخَاءٍ وَكَرَمٍ، فَأَحَبَّهُ النَّاسُ حُبًّا جَمًّا وَأَثَنُوا عَلَيْهِ ثَنَاءً عَظِيمًا، وَاتَّخَذُوهُ قُدُوةً يَهْتَدِي بِهِ.

فَقَدْ كَانَ الْإِمَامُ «مَالِكُ» قِمَّةً عَالِيَةً فِي الْعِلْمِ وَالْخُلُقِ وَالْفَضْلِ، عَفِيفَ اللِّسَانِ، صَادِقَ الْحَدِيثِ، تَقِيًّا وَرِعًا عَابِدًا، لَا يَتْرُكُ قِيَامَ اللَّيْلِ وَلَا قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ، مُخْلِصًا مَتَوَاضِعًا لَا يَعْلُو بِعِلْمِهِ وَلَا مَقَامَهُ عَلَى أَحَدٍ.

أَرْسَلَ الْخَلِيفَةُ الْعَبَّاسِيُّ «هَارُونُ الرَّشِيدُ» يَوْمًا أَشَاءَ زيارَتِهِ لِلْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ إِلَى الْإِمَامِ «مَالِكٍ» لِيَأْتِيَ إِلَيْهِ وَيُحَدِّثَهُ بِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَرْسَلَ الْإِمَامُ إِلَى الْخَلِيفَةِ قَائِلًا :

- يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ الْعِلْمَ يُؤْتَى إِلَيْهِ وَلَا يَأْتِي.

- فَرَدَّ عَلَيْهِ الْخَلِيفَةُ قَائِلًا : نَأْتِي إِلَيْكَ وَنَمْنَعُ النَّاسَ عَنِ الْحُضُورِ إِلَيْكَ حَتَّى أَنْصَرِفَ مِنْ مَجْلِسِكَ.

- فَقَالَ الْإِمَامُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا مُنِعَ الْعِلْمُ مِنَ الْعَامَّةِ لَمْ يَنْفَعِ اللَّهُ بِهِ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ.

فَذَهَبَ الرَّشِيدُ إِلَى مَنْزِلِ «مَالِكٍ» وَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ تَوَاضَعًا لِعِلْمِهِ، وَإِجْلَالًا لِمَكَانَتِهِ وَفَضْلِهِ.
وَتَمَضَى الْأَيَّامُ، وَتَتَطَوَّى السَّنُونَ، وَيَتَقَدَّمُ الْعُمُرُ بِالْإِمَامِ؛ فَيَلْزِمُ بَيْتَهُ لَا يَخْرُجُ مِنْهُ، لَكِنَّهُ لَمْ يَتَوَقَّفَ عَنْ تَعْلِيمِ النَّاسِ،
وَإِسْدَاءِ النَّصَحِ وَالْمَشُورَةِ لِكُلِّ مَنْ يَطْرُقُ بَابَهُ، فَلَمَّا بَلَغَ الْإِمَامُ السَّابِعَةَ وَالثَّمَانِينَ مِنْ عُمُرِهِ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْمَرَضُ،
فَمَنَعَهُ تَمَامًا عَنِ الْحَرَكَةِ، وَظَلَّ كَذَلِكَ أَيَّامًا، وَفِي الْيَوْمِ

الْعَاشِرِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ (١٧٩) هِجْرِيَّةٍ (٧٩٥)

مِيلَادِيَّةٍ صَعِدَتْ رُوحُ الْإِمَامِ الطَّاهِرَةِ إِلَى بَارِئِهَا

، وَحُمِلَ جَسَدُهُ الشَّرِيفُ عَلَى الْأَعْنَاقِ لِيُصَلَّى

عَلَيْهِ فِي نَفْسِ الْمَوْضِعِ الَّذِي أَمَضَى فِيهِ

عُمُرُهُ تَلْمِيزًا نَجِيبًا، ثُمَّ مُعَلِّمًا جَلِيلًا ثُمَّ

وَرَى الْجَسَدَ الشَّرِيفُ فِي تُرَابِ «الْبَقِيعِ».

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«يُوشِكُ النَّاسُ أَنْ يَضْرِبُوا أَكْبَادَ

الْإِبِلِ فَلَا يَجِدُونَ عَالِمًا أَعْلَمَ مِنْ

عَالِمِ الْمَدِينَةِ».



مَالِكٌ فِي سَطُورٍ

اسْمُهُ وَنَسَبُهُ: هُوَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ بْنِ مَالِكِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْحَارِثِ - يَنْتَهِي نَسَبُ الْإِمَامِ إِلَى الْمَلِكِ «ذِي أَصْبَحَ» مِنْ قَبِيلَةِ «الْأَصْبَحِيَّةِ»، وَهِيَ قَبِيلَةٌ حِمْيَرِيَّةٌ عَرَبِيَّةٌ كَبِيرَةٌ، كَانُوا مِنْ مَلُوكِ الْيَمَنِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ.

أَبُوهُ: «أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ» وَهُوَ غَيْرُ الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ «أَنَسُ بْنُ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ النَّجَّارِيُّ الْأَنْصَارِيُّ» خَادِمُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبِهِ **أُمُّهُ:** «الْعَالِيَّةُ بِنْتُ شَرِيكِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شَرِيكِ الْأَزْدِيَّةِ» وَ«الْأَزْدُ» مِنْ أَشْهُرِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ الْقَحْطَانِيَّةِ.

جَدُّهُ: «مَالِكُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ» كَانَ مِنْ كِبَارِ التَّابِعِينَ وَعُلَمَائِهِمْ، رَوَى عَنْ «عُمَرَ»، وَ«عُثْمَانَ»، وَ«عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ»، وَ«أَبِي هُرَيْرَةَ»، وَكَانَ أَحَدَ الْأَرْبَعَةِ الَّذِينَ حَمَلُوا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ «عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ» لَيْلًا إِلَى قَبْرِهِ، وَقَدْ تَوَفَّى «مَالِكُ» سَنَةَ (٩٤) هِجْرِيَّةً.

أَوْلَادُهُ: كَانَ لِلْإِمَامِ «مَالِكٍ» أَرْبَعَةُ أَوْلَادٍ هُمْ: «يَحْيَى»، وَ«مُحَمَّدٌ» وَ«حَمَّادٌ»، وَ«فَاطِمَةُ» وَالتَّتِي قِيلَ إِنَّهَا كَانَتْ تَحْفَظُ كِتَابَ «الْمَوْطَأَ».

مَوْلِدُهُ: وُلِدَ الْإِمَامُ «مَالِكُ» سَنَةَ (٩٣) هِجْرِيَّةً، (٧١٢) مِيلَادِيَّةً بِالْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ فِي خِلَافَةِ «سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الْأُمَوِيِّ».

صِفَاتُهُ الْجَسْمِيَّةُ: كَانَ الْإِمَامُ «مَالِكُ» طَوِيلًا، ضَخَمَ الْجِسْمِ، أَشَقَرَ، أَرْقَ الْعَيْنَيْنِ، حَسَنَ الْوَجْهِ.

مَكَانَتُهُ وَالْقَابُ الْعِلْمِيَّةُ: إِمَامُ دَارِ الْهَجْرَةِ، أَحَدُ الْأَثَمَةِ الْأَرْبَعَةِ، مُؤَسِّسُ الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ.

عَصْرُهُ: عَاشَ «مَالِكُ» نَحْوَ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ سَنَةً (٩٣-١٧٩ هـ= ٧١٢-٧٩٥ م) عَاشَ مِنْهَا فِي عَصْرِ الْخِلَافَةِ الْأُمَوِيَّةِ نَحْوَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَفِي عَصْرِ الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ نَحْوَ سَبْعٍ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً.

شَيْوُخُهُ: أَخَذَ «مَالِكُ» الْعِلْمَ عَنْ نَحْوِ تِسْعِمِائَةِ شَيْخٍ، كَانَ مِنْهُمْ نَحْوُ ثَلَاثِمِائَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ، وَنَحْوَ سِتِّمِائَةٍ مِنْ تَابِعِي التَّابِعِينَ، وَكَانَ مِنْ أَشْهُرِهِمْ: «رَبِيعَةُ بْنُ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ»، وَ«أَبْنُ هُرَيْرَةَ»، وَ«نَافِعُ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمَرَ»، وَ«أَبْنُ شِهَابِ الزُّهْرِيِّ».

تَلَامِيذُهُ: تَخَرَّجَ عَلَى يَدِ الْإِمَامِ أُلُوفُ التَّلَامِيذِ، وَصَارَ مِنْهُمْ أَثَمَةٌ أَعْلَامٌ، بَلْ إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ أَصْبَحَ صَاحِبَ مَذْهَبٍ فَقْهِيٍّ كَبِيرٍ، وَهُوَ الْإِمَامُ «الشَّافِعِيُّ» - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَمِنْ أَشْهُرِ تَلَامِيذِ الْإِمَامِ «مَالِكٍ» أَيْضًا، «عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْقَاسِمِ»، وَ«عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ»، وَ«أَشْهُبُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْقَيْسِيُّ»، وَ«زِيَادُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ» الْمُلقَّبُ بِشَبْطُونٍ.

كُتُبُهُ: «الْمَوْطَأُ» وَهُوَ مِنْ أَشْهُرِ كُتُبِهِ، وَقَدْ امْتَدَحَهُ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ قَائِلًا: «مَا فِي الْأَرْضِ - حَتَّى زَمَانِهِ طَبْعًا - كِتَابٌ فِي الْعِلْمِ أَكْثَرَ صَوَابًا مِنْ مَوْطَأِ «مَالِكٍ». وَلَهُ أَيْضًا كِتَابُ «تَفْسِيرِ غَرِيبِ الْقُرْآنِ»، وَ«النُّجُومُ»، وَ«الْمَسَائِلُ»، وَرِسَالَةٌ فِي «الْوَعْظِ».... وَغَيْرُهَا.

وَفَاتَتُهُ: تَوَفَّى الْإِمَامُ «مَالِكُ» فِي الْيَوْمِ الْعَاشِرِ مِنْ شَهْرِ رَجَبِ الْأَوَّلِ سَنَةَ (١٧٩) هـ، وَدُفِنَ فِي «الْبَقِيعِ» عَنْ عُمَرٍ يُنَاهِزُ السَّابِعَةَ وَالْثَّمَانِينَ عَامًا.